بأجمعها إلى اللغة الفرنسية على يد أقدر العلماء والمتخصصين . فأصبح في استطاعة كل فرنسي أن يدرس الحقوق الرومانية دون أن يتعلم اللاتينية

هذا ، ويجب ألا يعزب عن البال أن الحقوق والقوانين المصرية لم تبق تحت سيطرة الحقوق الرومانية ، وإن كانت قد استمدت — فيما مضى — أصولها منها . فأهمية الحقوق الرومانية في الثقافة الحقوقية آخذة في التضاؤل يوماً عن يوم ، وسائرة نحو مطاوى التاريخ بخطوات سريعة

ولهذا كله لا مجال لتبرير تعليم اللاتينية — بصورة منطقية — بحجة ضرورة ذلك لفهم الحقوق الرومانية

(ه) وأما مسألة الاصطلاحات العلمية الحديثة فإنها ليست من الأهمية بدرجة تستلزم صرف الجهود الشاقة لتعلم اللاتينية واليونانية ، فإن مصادر هذه الاصطلاحات وأساليبها محدودة ، فليس من الصعب تعليمها مباشرة — مع ذكر وجوه اشتقاقها — دون التعمق في أغوار اللغتين القديمتين المذكورتين

فضلاً عن أن المعاني الاصطلاحية قلما تنطبق على المعاني اللغوية ؛ فمعرفة المعاني الأصلية قلما تساعد على فهم المعاني الاصطلاحية. ويمكننا أن نقول: إن عدم ضرورة التقيد بالمعاني الأصلية في الكلمات والتعبيرات المستخرجة من اللغات الميتة ، كان من أهم العوامل التي سهلت وضع هذه الاصطلاحات الحديثة ، ونشرها بين جميع الأمم العصرية (وذلك بجانب العامل الآخر ، وهو ملاءمة عواطف الأمم التي لا تقبل عادة الاصطلاحات التي تستمد عناصرها من لغات الأمم المعاصرة لها). ولا تقالى إذا قلنا: إن هذه الاصطلاحات إنما أدخلت على اليونانية واللاتينية إدخالاً ، فلو أنها عرضت على أبناء اللاتينية أو آباء اليونانية في حياتهم ، لما فهموا منها شيئاً ، أو فهموا منها أشياء أخرى

وعلى كل حال نستطيع أن نقول : إن معرفة المعاني الأصلية ليست ضرورية لفهم المعاني الاصطلاحية ، كما أنها ليست مفيدة لها في أكثر الأحيان

فمحاولة تبرير تعليم اللاتينية واليونانية بحجة ضرورة هاتين اللغتين لفهم الاصطلاحات العلمية الحديثة ، مما لا يتفق مع العقل والمنطق بوجه من الوجوه

(يتبع) أبو هندوره

جناية أحمد أمين
على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك

— ١٠ —

سنواجه الأدب الأندلسي في مقال اليوم ، وهو الأدب الذي اتهمه الأستاذ أحمد أمين بالعجز عن تذوّق الطبيعة ، والإحساس بالوجود .

ولكن لا بدّ من من كلمة قصيرة نبين بها بعض الخصائص التي امتاز بها الأدب العربي ليعرف أحمد أمين ومن لفّ لفّهُ من المتحذلقين كيف تفرّد ذلك الأدب بالصيغة العالية بين سائر الآداب .

أسيرُ الآداب في العصر الحاضر هو الأدب الفرنسي والأدب الإنجليزي والأدب الألماني ، ولكن هذهِ الآداب على عظمتها لا تزال محصورة في العبقرية المحلية . ومعنى ذلك أن أقطاب الأدب الإنجليزي إنجليز ، وأقطاب الأدب الفرنسي فرنسيس ، وأقطاب الأدب الألماني ألمان .

والأدب الإنجليزي حين ازدهر في أمريكا لم يكن أقطابه هناك من السكان القدماء لبلاد الأمريكان ، وإنما كان أقطابه من السلالات الإنجليزية التي احتلت تلك البلاد .

والفرنسيون لا يعترفون لأهل سويسرا وبلجيكا بالتفوق في الأدب الفرنسي ، ويقولون إن أدبهم لا هو لحم ولا هو سمك ، على حد تعبيرهم الطريف Ni chair, ni poisson مع استثناء أفراد قلائل رفعتهم العبقرية إلى التفوق في لغة هوجو وميسيه ولامرتين .

أما الأدب العربي فكان حظه من أغرب الحظوظ ، لأنه تغلغل في كثير من البيئات الشرقية والغربية ، وانتفع بعبقريات كثيرة في مختلف الأمم والشعوب ، فكان فيه أقطاب بين ناس لم تكن لهم قبل الإسلام صلة بمهد اللغة العربية من ناحية الجنس أو الدين .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الأدب العربي هو الأدب المخضرم الذي انتفع بالأجواء المختلفة من طبائع البلاد وسرائر الرجال . وقد ظهرت عبقريته في لونين من ألوان التعبير : هما العلوم الشرعية والفنون الأدبية ، وما يمكن لباحث منصف أن ينكر أن الفقه الإسلامي صورة من صور التعبير الدقيق ، وهو من صميم الأدب عند من يعرفون أن شرح الشرائع فرع من الفروع الأدبية ، وهو يمثل الشعور بما في المجتمع من معضلات ومشكلات خلقتها ظروف المعاش .

وذلك الفقه لم تختص به أرض دون أرض ، فكان من أهل الهند وأهل فارس وأهل مصر وأهل المغرب والأندلس رجال تفوقوا في الدراسات الفقهية أشد التفوق ، وأمدوا الأدب بصور كثيرة تمثل الاتجاهات الذوقية والمعاشية .

وما يقال في الفقه يقال في التوحيد والتفسير والحديث ، فهناك ألوف من المصنفات الجيدة التي وَعَتْ ضروباً من الحقائق الأدبية والفلسفية لا يستهين بها رجل حصيف

ولو توجهت همم الباحثين إلى شرح ما في تلك المصنفات من مقاصد وأغراض لأتوا بالعَجَب العُجاب . وقد نبهني إلى ذلك المسيو مرسيه يوم كنت مشغولاً بشرح الرسالة العذراء ، فاستطعت أن أجد شواهد أدبية من كتب الفقه عند المالكية . وكذلك استطعت بإرشاد المسيو ماسينيون استخراج بعض المعاني الصوفية من المؤلفات الفقهية

حيّا الله أساتذتي في باريس ، فبفضلهم عرفت من مذاهب البحث ما لم أعرف

* * *

وإنما مهدتُ لمقال اليوم بهذه الكلمات ليعرف الأستاذ أحمد أمين كيف أخطأ حين توهم أن الأدب مقصور على قصائد الشعراء ، فما كان الشعر إلا صورة من صور التعبير ، وهو لتقييده بالقوافي والأوزان لا يستطيع التعبير عن جميع الأغراض

وأنا مع ذلك سأقف عند الأدب الصِّرف الذي يمثله الشعر والنثر الفني وأنا أتحدث عن الأندلس

فهل من الحق أن الأندلسيين لم يحسّوا الطبيعة ولم يتذوقوها كما قال أحمد أمين ؟

إن المعروف عند جميع أدباء اللغة العربية أن الأندلسيين تفوقوا في وصف الطبيعة ، فكيف تفرّد أحمد أمين بنكران ذلك ؟

أيكون أحمد أمين أعلم الناس بالأدب ولا نعرف ؟ ذلك والله غاية العجب !

أيكون من طبع كلية الآداب أن تروض مدرسيها على اصطناع الحذلقة والإغراب ؟

أغلب الظن أن أحمد أمين سمع أنه لم يأت بجديد منذ اتصل بكلية الآداب ، والجديد عنده هو الخروج على ما اتفق عليه جمهور أهل الأدب في ميدان الحقائق الأدبية ، فمضى يتكلف ويتعسف ليأتي بجديد يجعله في الطليعة بين أساتذة كلية الآداب ، فكان ذلك الجديد هو التجني على ماضي الأدب العربي حين زعم أنه في أكثر أحواله أدب معدة لا أدب روح ، وأنه لا ينقد الحياة كما تصنع الآداب الافرنجية ، وأنه لم يصف الطبيعة ولم يتحدث عن المجتمع

وقد فندنا هذه المزاعم فيما يخص مصر والشام والعراق

وندفع اليوم ما وجّهه أحمد أمين إلى الأدب الأندلسي وهو يرى أهله قصروا أبشع التقصير في تذوق الطبيعة وفي الإحساس بما تعرضوا له من الأحداث الاجتماعية

ويجب أن يكون مفهوماً قبل الشروع في التفاصيل أن الأدب الأندلسي تعرض للضياع منذ أجيال ، فلو قلنا إن ذلك الأدب ضاع منه أكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب ، فقد عانى ذلك الأدب فتنة حمقاء هي ثورة الأسبان على مخلفات العرب في الأندلس وإصرارهم على تبديد ما ترك العرب والمسلمون من روائع الآداب والفنون

وكان ما صنع الأسبان بآثار العرب في المغرب صورة مما صنع التتار بآثار العرب في المشرق ، فكان حظ قرطبة صورة ثانية من حظ بغداد

تبدد من آثار العرب في الأندلس ما تبدد ، وضاع منه ما ضاع ، ومع ذلك بقيت آثاره تشهد بأن العرب في الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساساً قليل النظائر والأمثال

وهل يدرك أحمد أمين قيمة الإحساس بالطبيعة في قول المعتمد بن عباد :

وليل بسد النهر أنساً قطعته ... بذات سوار مثل منعطف النهر

نَضَتْ بُردها عن غصن بان منعم ... فيا حُسن ما انشقّ الكمام عن الزهر

أيقال إن هذا لعب بالتشبيهات ، كما يتوهم أحمد أمين ؟

وما رأيه فى قول عمرو بن فرج وهو يتحدث عن شرف العفاف :

وطائعة الوصال عففت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرة فبانت ... دياجى الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها ... إلى فتن القلوب لها دواعى
فلكت النهى حجاب شوقى ... لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقب يظما ... فيمنعه المكام من الرضاع[1]
كذاك الروض ما فيه لمثلى ... سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات ... فآخذ الرياض من المراعى

أينكر أن هذا الشاعر أحس الطبيعة أدق إحساس ؟

وهل يستطيع أن يؤدى هذه الصورة بأفضل من هذا الأداء ؟

وما رأيه فى قول محمد بن سفر :

وواعدتُها والشمس تجنح للنوى ... بزورتها شمساً وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنا الصبح فى الدجى ... وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
فعطّرت الآفاق حولى فأشعرت ... بعقدها والعَرف يُشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها ... كما يتقصّى قارئ أحرف السطر
فبتُّ بها والليل قد نام والهوى ... تنبّه بين الغصن والحقف والبدر
أعانقها طوراً وألثم تارةً ... إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضّت عقوداً للتعانق بيننا ... فيا ليلة القدر اتركى ساعة النفر

ألا يرى كيف كانت الطبيعة بأشجارها وأزهارها وأنهارها وأقمارها تداعب خيال الشاعر وهو ينظم هذا القصيد ؟

أيدرك قيمة الإحساس بالطبيعة فى هذا البيت :

فجاءت كما يمشى سنا الصبح فى الدجى ... وطوراً كما مرّ النسيم على النهر

قد يقول إن هذا لعبٌ بالتشبيهات !

إن قال ذلك فسيأتى يوم قريب نبين فيه قيمة التشبيهات وما فيها من الدلالة على الأنس بمعانى الوجود

وما رأيهُ فى قول أحد الأندلسيين :

أديراها على الروض الندّى ... وحُكم الصبح فى الظلماء ماضى
وكأس الراح تنظر عن حباب ... ينوب لنا عن الحدق المراضِ
وما غَرَبَتْ نجوم الأفق لكن ... نُقِلْن من السماء إلى الرياض

أيحسب هذه الأبيات من الكلام المزخرف الذى لا يدل على شىء ؟

اتق الله فى نفسك يا صديقى أحمد أمين ، فأنت لا تجنى على الأدب ، وإنما تجنى على نفسك حين تنسب إليها الغفلة عن أقدار هذه المعانى

وما رأيه فى قول الرصافى الأندلسى فى وصف حائك جميل :

قالوا وقد أكثروا فى حبه عَذَلى :
لو لم تهم بمُذال القدر مبتذلِ !
فقلت : لو كان أسرى فى الصبابة لى
لاخترتُ ذاك ولكن ليس ذلك لى
علقتُهُ حَبَبىَّ الثغر عاطرهُ ... حلو اللمى ساحر الأجفان والمقل
غُزَيِّل لم تزل فى الغزل جائلةً ... بنانُهُ جولان الفكر فى الغزل
جذلان تلعب بالمحوك أنملهُ ... على السدى لعب الأيام بالأجل
ضمّا بكفيه أو لحماً بأخمصه ... تخبُّط الظبى فى أشراك محتبل

ألا تدل هذه القطعة على أن الشاعر قوى الاحساس بالوجود ؟

وهل فكر أحمد أمين أن الأندلسيين لهم أمثال هذه المعانى ؟

وهل عرف أن منهم من قال فى وصف راقص مليح :

ومُنزّع الحركات يلعب بالنُّهى ... لبس المحاسن عند خلع لباسهِ
متأوّداً كالغصن وسط رياضه ... متلاعباً كالظبى عند كناسه
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلاً ... كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضم للقدمين منه رأسه ... كالسيف ضمّ ذبابه لرياسهِ

ألا تعدُّ هذه القطعة من غرائب الشعر البديع الذى يمثّل الإحساس بالوجود ؟

وهل عرف أن فى الأندلسيين من قال :

عطيته والليل يسحب ذيلهُ ... صهباء كالمسك الفتيق لناشقِ
وضممته ضمّ الكمىّ لسيفه ... وذؤابتاه حمائلٌ فى عاتقى
حتى إذا مالت به سِنة الكرى ... زحزحتُه شيئاً وكان معانقى
باعدتُهُ عن أضلع تشتاقهُ ... كيلا ينام على وسادٍ خافق

فهذا شاعرٌ حىّ المواطف ، مشبوب الأحاسيس ، يدرك

(١) السقب : ولد الناقة ، والمكام بالكسر الحبل الذي يمكم به

جمال الوجود فى أوقات الصفاء ، ويواجه الطبيعة بنظر ثاقب ، وقلب خفّاق

وما رأى صاحبنا فى قصيدة ابن هانئ :

فمن فى مأتم على العشاق ... ولبس السواد فى الأحداق

وهى قصيدة يحفظها أكثر الأدباء، وفيها من وصف الطبيعة ألوان

وما قوله فى أرجوزته القافية التى وصف فيها الساقى فقال :

يحثّها بدلّه المرموق ... أرقّ من أدمعه الرقيق

وبات سلطاناً على الرحيق ... يسلّط الماء على الحريق

ويغرس اللؤلؤ فى العقيق ... كأنّ دُرّ ثغره الأنيق

ألّف من حَبابها الفريق ... أو زَلّ عن فيه إلى الإبريق

وهل سمع الأستاذ أحمد أمين بأخبار ابن شُهيد صاحب « الزوابع والتوابع » ولأدبه صلة شديدة بتذوّق الوجود ؟

هل قرأ أشعار ابن زيدون ورسائل ابن زيدون ليرى كيف فتن هذا الشاعر الكاتب بفهم الدنيا والناس ؟

وهل نظر فى نكبات ابن عمار الذى تذكّر نفثاتُه بنفثات أبى فراس ؟

وهل خطر فى باله أن ينظر كيف برع الأندلسيون فى الموشحات ، وكانت أقباساً من الأضواء ، وأنفاساً من الأزهار ؟

هل عرف أن الأندلسيين بكوا بلادهم بكاء شهد بأنها قِطَعٌ من قلوبهم الخوافق ؟

هل مرّ بخاطره أن الأدب الأندلسى ترك فى الأدب اللاتينى أخيلة وتعابير بقيتْ على الزمان ؟

هل وصل إلى علمه أن عهد العرب فى الأندلس هو أشرف ما عرفتْ أسبانيا من العهود ؟

هل اتفق له أن يعرف أن تاريخ العرب فى الأندلس كان مادة غنية سعدتْ بها حَيَوات كثير من الباحثين الذين تشرفت بهم الجامعات الألمانية والفرنسية والإنجليزية ؟

هل طرق سمعه الخبر الذى يقول إن علماء الأندلس هم الذين عرّفوا أهل أوربا بمعارف اليونان ؟

فبأى حق يجوز التطاول على أهل الأندلس من رجل مثل أحمد أمين وهو يشهد على نفسه بأنه لا يكتب عن الأندلس إلا بعد أن يأذن له المستشرقون ؟

آه ، ثم آه !!

ما جزعت على وفاة الأستاذ مصطفى صادق الرافعى كما جزعت عليها اليوم !

فلو كان الرافعى حيًّا ورأى أحمد أمين يقول فى ماضى الأدب العربى ما يقول لأصلاه نار العذاب وصيره أضحوكة بين أهل الشرق والغرب

ولو كان أحمد زكى باشا حيًّا ورأى هذا العبث فى السخرية من أهل الأندلس لقدّم أحمد أمين إلى مهاوى سَقَر « وأحمد زكى باشا أول من أذاع محاسن الأندلس فى العصر الحديث ، قبل الشيخ محمد المهدى والأمير شكيب أرسلان »

ومن يدرى ، فلعل أحمد أمين يلقى من الجزاء ما هو له أهل يوم يتنبه أساتذة الأدب إلى واجبهم فى رد عادية العادين على ماضى اللغة العربية !

من يدرى ، فقد يقوم أحد المستشرقين بالانتصاف للتراث الذى غفل عن قيمته الشرقيون !

من يدرى ، فقد تستيقظ كلية الآداب فتنشئ كرسيًّا للأدب الأندلسى ليعرف شبان العصر الحاضر أن أسلافهم استطاعوا أن يروعوا الأدب اللاتينى فى حصنه الأمين !

* * *

إن الشواهد التى سلفت قد انتزع أكثرها من الشعر ، فكيف كان النثر عند أهل الأندلس وكيف دل على تذوق أصحابه؟

لا أريد أن أعيد ما قلت فى كتاب النثر الفنى حين تحدثت عن كتاب الأندلس ، لأنى أبغض الحديث المعاد ، وإنما أنبه القراء إلى خصيصة ظاهرة من خصائص النثر الأندلسى : هى الهيام بالتشبيهات رغبة منهم فى تجسيم المعانى ، والتشبيهات تنتزع فى الأغلب من صور الطبيعة والوجود ، فهى من الشواهد على إحساس الكاتب بالطبيعة والوجود

ولم تقف هذه الخصيصة عند الرسائل القصيرة أو كتب العهود ، وإنما شملت كتب التراجم وكتب التاريخ ، وغلبت على الأبحاث الصوفية

ومعاذ الأدب أن نفهم الطبيعة كما يفهمها أحمد أمين فنظلها مقصورة على الشجرة والزهرة ، هيهات ، إنما الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حجر ومدر ، وشجر ونبات ، وماء وجماد

والطبيعة الشاملة تظهر بعظموتها وجبروتها ممثلة ناطقة فى أكثر ما كتب الأندلسيون ، ولو شئت لقلت إنهم بالغوا فى ذلك حتى قاربوا الإسفاف ، فهل كانوا يعلمون من وراء الغيب أن سيجىء فى آخر الزمان من يتهمهم بالغفلة عن تذوق الطبيعة والوجود ؟

أمن أجل تلك التهمة المحجوبة فى ضمير الغيب كان الفتح بن خاقان يفتعل ويتعسف فى الأوصاف والتشبيهات ليقيم الدليل على أن الطبيعة كانت تطالع الأندلسيين من كل جانب ؟

أكان ابن زيدون وابن برد وابن شهيد وابن حزم يتوقعون أن سيتجنى عليهم ناس فيتهمونهم بالتبلد وضعف الإحساس فكان من احتفالهم بوصف الطبيعة ما كان ؟

* * *

وهنا أستأنس بكلمة قرأتها للأستاذ العقاد منذ سنين وهو يفاضل بين البحترى وشوقى ، فقد نص على أن شوقى وصف الطبيعة بعد أن صار وصفها من المذاهب الأدبية ، أما البحترى فوصفها بوحى من الفطرة . وكذلك أقول فى الحكم لأهل الأندلس : فهم لم يتعمدوا وصف الطبيعة ليقال إنهم تذوقوها وأحسوها ! وإنما وصفوها بوحى من الفطرة فكانت أوصافهم أبلغ فى الدلالة على سلامة الذوق ، وقوة الطبع ، وأصالة البيان

ويتحذلق أحمد أمين فيقول : أين الشاعر الذى رأى نفسه جزءا من الطبيعة على حد قول الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرته أبصرتنى ... وإذا أبصرتنى أبصرتنا

ونقول إن الحلاج بحمد الله شاعر عربى ، وشعره زكاة عن العرب الذين اتهمهم أحمد أمين ، وأبيات الحلاج هى اندماج فى الطبيعة ، ولذلك تفصيل يراه من شاء فى كتاب التصوف الإسلامى عند شرح نظرية وحدة الوجود ، حتى لا يظن ظان أن أحمد أمين أول من التفت إلى هذه الشؤون

ولكن ما بال صاحبنا يغفل عن أبيات الشاعر الأندلسى الذى منح الطبيعة خصائص النفس الإنسانية حين قال :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم

وهل يعرف أحمد أمين أن نظرية وحدة الوجود وهى أعظم تقديس للطبيعة لم يشرحها أحد بمثل ما شرحها الصوفية فى الأندلس ؟

وهل عرف أن ابن عربى له فى ذلك آيات بينات ؟

وهل فطن إلى أن ابن زيدون جمع إلى روحه أطراف الوجود حين قال :

يُدنى خيالكِ حين شطّ به النوى ... وهمٌ أكاد به أُقبّل فاكِ

* * *

أما بعد فقد زعم أحمد أمين أن ابن خفاجة الملقّب بشاعر الطبيعة لم يجد غير الصياغة ، ولم يستطع أن ينفخ فيها الروح ، إلا فى النادر القليل.

فهل نترك هذا الزعم بلا تفنيد رعاية لهذا « الأديب » ؟

وهل هان الأدب العربى على أهله حتى يتركوا زمامه لمن يتخيل فيخال ؟

إن من حق ابن خفاجة علينا أن نجلو صفحة من حياته الشعرية والنثرية تبين كيف كان ذلك الرجل فناناً بارعاً تجرى أنامله على أوتار الوجود ، فهو من مفاخر اللغة العربية ، وهو حجتها يوم يتطاول عليها من لا يدركون أسرار البيان .

وقبل الشروع فى الكلام عن ابن خفاجة أرجو أصحاب الجرائد والمجلات فى غير مصر أن يصححوا رأيهم فى أسباب هذه المقالات ، فليس من الصحيح أنى انتهزت فرصة الأخطاء التى وقع فيها أحمد أمين لأشفى صدرى منه أو لأشفى صدر صديق صاحب الرسالة ، فليس بيننا وبين الأستاذ أحمد أمين خصومة شخصية ، وإنما هى مصر تروض أبناءها على مخاصمة أصدقائهم فى سبيل الحق .

« الحديث شجون »

زكى مبارك